

المصالحة الخليجية تكشف ضعف السعودية



التغيير

كان شيء ما رمزي في العناق الموثق طهر، الثلاثاء الماضي، في مطار مدينة العلا. فقد استضافت هذه الواحة الصحراوية قمة دول الخليج، التي كانت بمثابة جامعة عربية صغيرة ومهمة.

من الطائرة هبط بعباءته الفاخرة داهية ابن أربعين. وعلى الأرض انتظره شاب ابن 35. وقد سقط الواحد بين ذراعي الآخر كالعشيقين.

ارتفع صوت المذيع في قناة التلفاز الرسمية في المملكة، ولكن لم يغط أي فرح صورة الحقيقة. فالضيف كان تميم بن حمد، أمير قطر، زعيم دولة من ربع مليون مواطن، تلف على إصبعها الصغير نصف دول الجامعة العربية.

المضيف هو محمد بن سلمان، الذي بفضل ماله والعلاقات التي ورثها من آباءه، يعد أحد الزعماء الاقوى في العالم. لبس كل منهما كمامتين اخفتا الحرج على وجهيهما. فهما لم يلتقيا منذ سنين، منذ فرض الواحد مقاطعة على الثاني وسُكِبَ عبثاً دم الاثنين.

بعد ساعات قليلة من ذلك وقع في قاعة المؤتمر اتفاق لانهاء المقاطعة، بعد ثلاث سنوات ونصف. وطوال هذا الوقت أخفى الرجلان ذليلهما اللذين كانا متدليين بين أرجلهما خلف العباءتين.

الريح الفوري كان لقطر، وتنفس الجميع الصعداء.

لكن هذه القصة اكثر تعقيدا. عندما انطلقت المقاطعة في 5 حزيران 2017 بدت خطوة صارمة وواعدة. فقد استدعت المملكة سفيرها في الدوحة للعودة على الفور الى الديار، وأعلنت عن قطع العلاقات مع قطر.

الامارات فعلت مثلها وفورهما جاءت مصر والبحرين. بعد الاعلان عن قطع العلاقات السياسية، جاءت المقاطعة الاقتصادية. وتوقفت كل علاقة تجارية بين قطر وهذه الدول، وأغلقت معابر الحدود من المملكة اليها.

وسُدّ المجال الجوي في المملكة، الامارات، والبحرين في وجه الطائرات التي اقلعت أو هبطت في الدوحة.

تصرف قطر برباطة جأش. توجهت على الفور الى ايران واشترت منها كل منتج احتاجته، بل فتحت لنفسها مسارا جويًا لحركة الطائرات.

الرحلات الجوية الى الدوحة طالت، وفي المحلات التجارية حلت البضائع التركية والايرانية محل منتجات الجيران، ولكن القطريين شدوا على الاسنان وواصلوا العيش.

كانت جملة من الأسباب لآل سعود واصدقائهم من أبوظبي للنزول، هذا الاسبوع، عن الشجرة العالية. بعد المليارات التي بذرت في محاولة فاشلة للفوز في اليمن، كم من المال يمكن خسارته في مغامرات عابثة؟

كما أن مناشدات مبعوثي البيت الابيض (بتشجيع الكويت) فعلت فعلها. واشنطن هي شريك استراتيجي للدوحة والرياض. ومنذ سنين تباع لهما سلاحا نوعيا بعشرات مليارات الدولارات.

ضغلت ادارة ترامب على النقطة الايرانية. هيا، قالت لهما، تصالحا قبل فوات الأوان، فلا يمكن أن نعرف ما ينتظركما في السياق الايراني على يدي الرئيس بايدن. من الافضل لكما أن تستقبلاه متحدين.

بالطبع الحرج كبير. هذه المقاطعة، كما فهم الجميع منذ زمن بعيد، فشلت فشلا ذريعا. مع فرضها طرح المقاطعون 13 مطلبيا نشرت على الملأ ومنذئذ كان من المشكوك جدا فيه أن تركع قطر وتطيعها، ولكن القائمة المغرورة شهدت على مزاج اصحابها اكثر مما جاءت لتنفيذ.

فقد طلب من الدوحة اغلاق قناة "الجزيرة"، الذراع الاعلامية التابع للقصر. كما طالبوها بتخفيض مستوى العلاقات مع ايران والتوقف عن كل علاقة تجارية معها، ما يخرق المقاطعة الأميركية. طالبوها أن تغلق قاعدة سلاح الجو التركية في أراضيها، وتقطع علاقاتها الامنية مع أنقرة.

تدعم قطر حركة الاخوان المسلمين. هذه الحركة، بفروعها وابنائها، تشكل علما أحمر من ناحية الامارات، المملكة، والبحرين التي ترى في الجهاد خطرا على وجودها. وقد طولبت قطر بالكف عن دعمها، بل قطع علاقاتها مع "حزب الله"، "القاعدة"، و"داعش".

نفذت الدوحة بالفعل سلسلة تعديلات تجميلية. فقد ودعت نشطاء من "الاخوان"، خفضت من حماسة التغطية الاعلامية لـ "الجزيرة"، وشدت الرقابة على الحسابات البنكية لذوي العلاقة بمحافل الجهاد. ولكن أبقت الاوراق القوية قريبة من الصدر.

الهمس من خلف الكواليس

مثلما في حالات عديدة في الماضي، كان الممثل الرئيس في هذه المسرحية محمد بن سلمان، ولكن من خلف الكواليس اختبأ الهامس. محمد بن زايد، ولي عهد الامارات، كان مرشد جاره الشاب وهو لا يزال يشكل له رجل سر.

دفعت الامارات نحو انهاء الاغلاق بقدر لا يقل عن المملكة، اذ رأت كيف يجتمع التهديد الخارجي والخسائر المالية ليصحا حركة كماشة مهددة، ولا يعد بايدن بشيء حالياً.

سجلت أبوطبي في هذه المقاطعة خسائر المداخيل الكبرى. فحجم تجارتها مع قطر يزيد على 7 مليارات دولار في السنة، ثلاثة اضعاف التجارة المتبادلة بين المملكة وقطر. وخلقت المقاطعة ركودا في اقتصاد

الخليج كله، أبعء المستثمرين وأضر بنمو الدول المشاركة فيها.

كل ذلك، بينما تواجه هذه الدول الخسائر التي تنطوي على انخفاض أسعار النفط. وقد ذهبت الأرباح إلى الخصمين الإقليميين، تركيا وإيران.

كان مشوقاً أن نتابع، هذا الأسبوع، حديث المحللين في الخليج. فقد أعرب بعضهم عن الأمل في أن يكون تجميد المقاطعة بداية حوار صحي بين المملكة وقطر، يوحد دول الخليج مثلما في الأيام الطيبة. معظمهم تنفسوا الصعداء، إذ رأوا في ذلك بداية وقف التدهور.

أمام ناظر الجميع كانت سابقة غزة، فالمعسكر الفلسطيني انقسم إلى اثنين، ومن تلك اللحظة أصبح كل جناح منهما كياناً متعثراً. واجبر هذا الضعف "حماس" والسلطة على البحث عن المعونة لدى المصريين، الأميركيين، القطريين، الأتراك بل حتى الإسرائيليين.

وكلهم هرعوا للانقاذ، وفي الوقت ذاته نبشوا أيضاً. هكذا أيضاً في الخليج. إيران، تركيا والولايات المتحدة دعوا للمساعدة، وسجلوا أرباحاً جميلة على ظهر الدول التي تآقت للمساعدة. لا غرو أن مصطلح "وحدة الخليج" طرح المرة تلو الأخرى في الحديث عن إنهاء المقاطعة.

والأمل هناك هو أنه من الآن فصاعداً ستوثق كل الأطراف علاقاتها وفي حوار سليم ومسؤول تعود لتكون يداً واحدة أمام كل من تبقى.

إلى أن يحصل هذا، سيواصل الأمير تميم أن يكون تميماً (بريئاً)، و ابن سلمان سيبقى نحوه موقفاً شاكاً. قطر لن تسارع إلى الكف عن دعمها لـ "الأخوان المسلمين"، منظمات الجهاد في العراق وفي سورية والحكومة شبه الإسلامية في طرابلس في ليبيا. وستحافظ على علاقاتها مع تركيا وإيران.

إلى قائمة الخاسرين يمكن أن نضيف إسرائيل، وإن كان في المكان الأخير، المحترم. فالأمير الشاب نجاة من أزمة حادة، وخرج منها مع ثقة ذاتية فائضة. شيء لم يمنعه من مواصلة دعم المحافظ الراديكالية في المنطقة.

صحيح أنه بالتوازي يقيم علاقات مع إسرائيل أيضاً وهذه كفيلة بأن تتوثق، مثلاً على خلفية بيع منظومات السلاح. ولكن منذ متى تأتي العلاقات مع هذه العواصم مع اتفاق ولاء.

فالقطني يتحدث مع إسرائيل لاحتياجاته وليس لاحتياجاتها. وإذا أملت مصلحته ذلك، فإنه سيستضيف مسؤولين إسرائيليين في الدوحة وبالتوازي سيواصل تشجيع أعدائها.

وإذا ما تحدثنا عن العلاقات، فإن ترامب سيعتزل، الاسبوع القادم، ويترك وراءه إرثاً مسلياً حتى العرب. لماذا مسلٌّ؟ لأنه منذ زمن بعيد لم يكن رئيس في البيت الأبيض خوزق الجميع كل الوقت. فقد خلط معاً الإيرانيين، دول الخليج، ونحن ايضاً، عظم الخوف في المنطقة - وفي هذه الأثناء باع الجميع منظومات سلاح بمئات مليارات الدولارات.

صحيح أنه جلب لإسرائيل اتفاقات تطبيع منشودة، ولكن في الوقت ذاته بنى لعواصم الخليج جيوشاً حديثة مع افضل الوسائل القتالية في الجو وفي البر مثلما لم يكن لها أبداً.

عن ثلاثة منهم (المملكة، الإمارات، والبحرين) يمكن أن نقول فليكن. فهم أصدقاء لإسرائيل. ولكن هذه صداقة لحظية، هشة كما سنرى. وهم بالتأكيد ليسوا أصدقاء حقيقيين.

وبالنسبة لقطر، حتى لو أقامت علاقات مع إسرائيل، فهي ستبقى أبداً المملكة الصغيرة التي كانت ذات مرة. تعيش جهوداً للبقاء، تدعم أجنحة متطرفة، مغرورة وداهية.